الفصل الثاني: نشأة الأدب المقارن :

يجب أن نفرق في البداية بين الأدب المقارن كظاهرة أدبية موجودة في الآداب، وبين الأدب المقارن كعلم، فالأدب المقارن ظاهرة قديمة منذ تضرّعت الشعوب وظهر لها أدب، وتلاقت هذه الشعوب في علاقات حربية أو تجارية، أو علاقات أخرى، فتأثر أدب شعب بأدب شعب آخر أو أثّر في أدب شعب آخر.

أ. تاريخ نشأة الأدب المقارن:

وكانت العبقرية اليونانية مصدر الفكر والفن في العالم الغربي، ولعل أول مظهر من مظاهر التأثير الأدبي هو الذي شهدناه من تأثر الأدب الروماني بالأدب اليوناني، فعلى الرغم من أن اليونان انهزموا أمام رومانسة 146 ق م فقد خضع المنتصرون لحضارة المغلوبين، وأخذوا ينهلون منها ويبنون على أساسها، فازدهار الأدب الروماني يرجع إلى اعتماده على أدب اليونان بعد أن نادى كبار النقاد الرومان بضرورة محاكاة الأدب اليوناني، ومن أشهر هؤلاء النقاد:

هوراس(Horace) (65 ــــــ8 ق.م) الذي دعا في كتابه" فن الشعر" إلى اتّباع أمثلة الإغريق والعكوف على دراستها. وهذه الدعوة هي التي أسست نظرية " المحاكاة" كما عرفت بعد ذلك في عصر النّهضة.

ونحن نعرف أن أرسطو كان قد قرّر أن الفنّ " المحاكاة" للطبيعة، فجاء الرومان وقدّروا أن الفن الأصيل يقتضي محاكاة فن اليونان، وقد شرح " كانتيليان" " quintulian" هذه الفكرة وسنّ لها قواعد عامة هي أن:

1. المحاكاة للكتاب والشعراء مبدأ من مبادئ الفن لا غنى عنه.

2. المحاكاة تتطلب مواهب خاصة في الكتاب الذي يحاكي كما أن محاكاة الطبيعة مواهب خاصة.

3. المحاكاة يجب أن لا تكون للكلمات والعبارات بقدر ماهي لجوهر موضوع الأدب ومنهجه.

4. على من يحاكي اليونانيين اختيار النماذج التي يتيسر محاكاتها، وأن تتوفر له قوة الحكم ليميز الجيد من الردئ.

5. المحاكاة غير كافية وحدها، ويجب ألا تعوق ابتكار الشاعر وألا تحول دون أصالته.

وفي ظل هذه المحاكاة، ثم ازدهار الأدب الروماني مع صعوبة على أي دارس للأدب اللاتيني أن يرى فيه جانبا من جوانب الأصالة إلاّ وتأثير الأدب اليوناني واضح فيه، اللهمّ إلاّ ما قد يكون من الخطابة والتاريخ.

مرحلة العصور الوسطى(1395-1453):

خضعت الآداب الأوربية المختلفة لعوامل مشتركة وحدت بعض اتجاهاتها ووثّقت علاقاتها بعضها ببعض.

وتمثلت مظاهر التوحيد في اتجاهين:

الاتجاه الديني:

1. فرض سيطرة رجال الدين المسيحي الذين كان منهم الكتاب والقرّاء معًا.

2. تغلغل الروح المسيحية في الإنتاج الأدبي.

3. هيمنة اللغة اللاتينية على لغة العلم والأدب ولغة الكنيسة.

الاتجاه الفروسي ويقصد بها:

1. سيطرة طبقة النبلاء التي تواجدت في جميع أنحاء أوربا، وما كان بينها من تعاون على مستوى الطبقة ذاتها.

2. عملوا على ابتكار الفروسية.

3. احتكار الأموال.

4. احتكار الثقافة والعلم من خلال توجيه أبنائهم نحو التعليم إلى جانب الفروسية.

5. تأثير العرب في الحياة العاطفية الأوربية.

أثر ذلك:

\* في هذين الاتجاهين سار الإنتاج الأدبي في كثرته الغالبة مما أكسب لذلك الأدب طابع العالمية في اتجاهه العام.

\* التأثير العربي برز في الأجناس الأدبية الأوربية التي كان لها صدى في جميع أنحاء العالم.

لم يتبلور ذلك في أن يصبح مجالا للدراسات المقارنة، البحث عن المؤثرات العامة في العصور الحديثة حين نهض تاريخ الأدب والنقد الأدبي.

عصر النهضة (القرن الخامس عشر والسادس عشر):

إذا انتقلنا إلى هذا العصر، وجدنا فكرة المحاكاة التي قرّرها الرومان قد أصبحت نظرية حينما أدركت أوربا أن النهضة لا تكون إلا بالعودة إلى الأصول اليونانية واللاتينية القديمة وإحيائها ومحاكاتها، وكانت أوربا قد عرفت الفكر اليوناني عن طريق العرب الذين ترجموا علوم اليونان وبخاصة أعمال أرسطو وقدموا شروحهم المعروفة عليها.

وقد كانت الدعوة إلى الآداب القديمة بمثابة ثورة فكرية لأنها تضمنت الخروج على الآداب الوسطى ذات الطابع المسيحي.

ب. بروز النّزعة الإنسانية:

حيث عاد رجال الأدب إلى نظرية المحاكاة للأقدمين من اليونان واللاتنيين لما في أدبهما من اتجاهات إنسانية حيث عنيا بالإنسان ومشكلاته من وجهة نظر إنسانية؛ إذ كانت آلهة اليونان أقرب بصافتها إلى الإنسان، ولقد كان شرح نظرية " المحاكاة" أوضح ما يكون لدى "جماعة الثريا " من الفرنسيس في عصر النهضة الذين اتّخذوا من هذه النظرية وسيلة ناجحة لإغناء الفرنسية؛ فقد أوضح " دورا" ( 1508-1588) لتلاميذه ما تدين به اللاتينية لليونانية إذ ظلت اللاتينية خمسة قرون كاملة لا أدب يذكر لها، ثم ازدهر أدبها على إثر اتصالها بالأدب اليوناني؛ فشرح لهم كيف كان " شيشيرون" الروماني مدينا في خطاباته لخطيب اليونان" تيوكيريت" و" هوميروس" مثلا.

وتعدّ دراسات " دورا" على هذا النحو من أقدم ما عرف من الدراسات الأدبية المقارنة .

وقد رأى ناقدهم الآخر " دي بلي" Du Bellay"") 1522ـــــــ (1570 أن الترجمة غير كافية للرجوع إلى القديم من خلالها. بل لابد من الأصل للوصول إلى الخصائص الفنية الأدبية لأنّه طريق المحاكاة الصحيحة وقد قال: « فلنتهج نهج الرومان في إغناء لغتهم بحثا واطلاعا وهضموها هضما وصيّروهم رومانيين لحما ودما»، ثم يدعو " دي بلي" إلى الامتناع عن محاكاة الأدباء الفرنسيين السابقين لأن تقليدك لأبناء لغتك« ليس سوى منح لغتك ما هو في حوزتها سلفا».

وهاتان المرحلتان تضعان أمامنا الحقائق المهمة التالية:

1. أن اتصالا تاريخيا حدث بين أدبين، بين الأدب اللاتيني والأدب اليوناني، وبين أدب عصر النّهضة وآداب اليونان واللاتين، وأن هذا الاتصال أدى إلى إحداث تأثيرات واضحة.
2. أن التأثر الذي حدث بين هذه الآداب وقع بينها اختلاف اللغة .

أن نظرية " المحاكاة" التي نادى بها أدباء عصر النهضة تقوم في أساسها على العودة إلى الآداب القديمة في لغاتها الأصلية أي بعدم الاعتماد اعتمادا كبيرا على الترجمة.